

والملاحظ هنا أن الإبداع الفكري العسكري ، والبحث عن وسائل المستقبل القتالية يتمان داخل الجيوش المهزومة بسرعة لا يتمان بها داخل الجيوش المنتصرة ، إذ تهز الهزيمة العقائد التقليدية القديمة وتطرحها للمناقشة وتلقي على عاتقها جزءا من مسؤولية الفشل ، على حين يثبت الانتصار المفاهيم التي انتصرت ، ويدفع القادة الى التمسك بالعقائد والأساليب التي أثبتت فاعليتها على أرض المعركة . ويحاول القادة المنتصرون نقل تصوراتهم الى جيل القادة الذي يليهم ، فاذا ما تبنى هذا الجيل مفاهيم أسلافه المكلفة بغار المجد ، وحاول تطبيقها بشكل حربي ، سار أول خطوة على طريق الفشل ، وخاصة إذا كانت هزيمة الخصم في الحرب السابقة قد حفزته بشكل قوي ودفعته الى البحث عن مفاهيم جديدة ، وتطوير أساليبه القتالية وتثويرها لتتلاءم مع الحرب المستقبلية .

ومهما كانت الزاوية بين خطي تطور مفاهيم الخصمين صغيرة في البداية ، فإن المسافة بين الخطين تتباعد باستمرار طوال سنوات السلم ، حتى تخلق بين عقيدتي جيشي الخصمين هوة ليس من السهل ردها . وتظهر أهمية هذه الهوة عندما يصطدم الجيشان من جديد ، وتبدو عيوب الجيش التقليدي أمام ديناميكية الجيش الذي حطم التقليدية بأساليب ثورية حديثة مبتكرة ، ويحقق الجيش الثاني عددا من الانتصارات بفضل المفاجأة بأسلوب القتال أو نوع السلاح ويتعلم الخصم بالتدريج قواعد اللعبة ، ويبدأ تطبيقها ، وتفقد المفاجأة حجمها وأهميتها ، وتغدو أساليب الأمم الثورية الجديدة أساليب تقليدية ، ويعود مجال المفاجأة محصورا في اختيار زمان المعركة ومكانها . ويبدأ البحث من جديد عن طريقة ملائمة لتثوير الأساليب أو الأسلحة بغية زيادة امكانات المفاجأة التكتيكية والاستراتيجية .

وتنطبق كل هذه الأمور على الصراع العربي - الاسرائيلي ، مع تعديل ناجم عن خصوصية هذا الصراع . ويتمثل هذا التعديل في أن اهتمام الدولتين العملاقتين بمنطقتنا، ووقوفهما سياسيا وتسليحيا وراء الطرفين المتنازعين يجعل أية مجابهة عربية - اسرائيلية نقطة احتكاك ساخنة في اطار التنافس الأمريكي - السوفياتي الذي خفت حدته الى حد بعيد بعد انتهاء مرحلة الحرب الباردة وبدء مرحلة الوقاف الدولي دون أن تخفي كل آثاره بشكل كامل . ويؤدي اهتمام الدولتين العملاقتين بأي صراع يندلع في منطقتنا الى قيامهما ببذل الجهود المكثفة لتسليح الجيوش وتدريبها وتطوير أساليبها وتثوير وسائلها وخططها القتالية ، الامر الذي يجعل التثوير والتطوير غير متناسبين مع الامكانات المادية والمستويات الحضارية للطرفين المتنازعين ، وغير نابعين من ظروف المنطقة ، ولا يمثلان انعكاسا لهذه الظروف ، بل يمثلان بالاحرى انعكاسا محليا مصغرا للتطور العسكري الأمريكي والسوفياتي في مجالات العقائد الحربية والتكتيكات والأسلحة ومعدات القتال ، مع قسط من الاسهام الذاتي يتناسب مع ديناميكية القيادات المحلية المتفهمة لحقائق المنطقة ومعطياتها .

ومن المهم قبل الخوض في بحث الملامح الثورية في الحرب العربية - الاسرائيلية الرابعة أن نشير الى أن التثوير الذي نقصده هنا يقتصر على الخروج عن التقليدية ضمن اطار الحرب التقليدية . وهو لا يشمل التثوير بمعناه « الماوي » ولكنه أقرب الى التثوير بمعناه « النابليوني » أو « الغودرياني » نظرا لانه يتعلق بوسائل الحرب وأساليبها أكثر من تعلقه بروحها . ولتفسير ذلك لا بد من العودة قليلا الى جوهر الحرب . يقول الجنرال أندريه بوغر بأنه « إذا كانت أشكال الحرب تتبدل فإن جوهرها ثابت لا يتغير : انه يتمثل في تحطيم ارادة الخصم لاجباره على قبول الشروط التي نود فرضها عليه » (٢) . وتحاول الحرب التقليدية تحقيق هذا الهدف عن طريق الانتصار العسكري في ساحة